

التفكير الأسلوبى فى الموروث العربى

أ/ نعيمة سعيديّة

كلية الآداب واللغات

-جامعة بسكرة-

الملخص:

Résumé:

Le Stylistique est un nouveau bronche linguistique .c'est la science qui étudie le (style) avec toutes leurs catégories.

Elle fait recherché a bien détermine toutes ces mécanismes. Et voir ses exerce sur le texte dans cette dynamique production.

Cette étude vise à mettre à suivre d' études les anciens à savoir(EL JORJANI -Amedi ..) Qui proches d'une façon ou d'une autre au nouveau leçon Stylistique. et d'approcher le style.

الأسلوبية فرع السنّي جديد، يبحث من خلال جميع أبحاثه ودراساته إلى إيجاد مبررات فلسفية لموضوعه " الأسلوب" بجميع آلياته وتقنياته الإجرائية والجمالية، ورؤيا تطبيقها على النص الأدبي الذي يتوسل الأسلوب في ظل فاعليته الإنتاجية .

وتسعى هذه الدراسة إلى تتبع جهود بلاغية للمفكرين القدامى عبر آرائهم الاستشرافية، التي وجدناها تقترب بشكل أو بآخر من بعض ملامح الدرس الأسلوبى المعاصر.

1- في مفهوم الأسلوبية:

يعرف "شارل بالي" الأسلوبية؛ بأنها "دراسة قضايا التعبير عن قضايا الإحساس وتبادل التأثير بين هذا الأخير والكلام.. والأسلوبية كفرع من اللسانيات العامة تتمثل في جرد الإمكانيات والطاقت التعبيرية للغة بالمفهوم السوسيري"¹

إنها الوجه الجمالي للألسنة، تبحث في الخصائص التعبيرية والشعرية التي يتوسلها الخطاب الأدبي، وترتدي — بذلك — طابعا علميا تقريريا في وصفها للوقائع وتصنيفها بشكل موضوعي ومنهجي. ويقول جوزيف مشال شريم : " الأسلوبية هي تحليل لغوي موضوعه الأسلوب وشرطه الموضوعية، وركيزته الألسنية "²؛

ومارشال كروسو — أحد تلامذة بالي — حول الجانب الوجداني للغة إلى المفهوم الجمالي ومن هذه الزاوية أسس علاقة تكاملية مع البلاغة والنقد، تبعه في الإطار لنفسه بيار غيرو (Pierre Geauraid) الذي شدد على ازدواجية وظيفية بين المدى الأسلوبي والتفكير البلاغي، وكلاهما ينقاطعان فوق مساحة التركيب والكلام والنص الأدبي (3) .

وعليه، تعني الأسلوبية بدراسة مجال التصرف في حدود القواعد البنوية لانتظام جهاز اللغة، وتسعى إلى تحديد الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية، وهنا تطرح الأسلوبية تساؤلا علميا عن الذي يجعل الخطاب الأدبي الفني مزدوج الوظيفة والغاية، ويؤدي ما يؤديه الكلام عادة، وهو إبلاغ الرسالة الدلالية وسيط مع ذلك على المتقبل تأثيرا ضاغطا به ينفعل للرسالة المبلغة انفعالا ما، أي كان نوع هذا الانفعال، فعلى الملتقي، إزاء كلام ما أن يبدي ردة فعل تبرز تأثيره بذلك الأسلوب في الكلام .

وعن تلقي المصطلح في الدرس اللساني العربي وحتى النقدي؛ فيؤثر الدكتور "سعد عبد العزيز مصلوح" ترجمة المصطلح إلى الأسلوبيات؛ لأنها الأطوع في التصريف وسيرا على سنة السلف، ويميل صلاح فضل إلى "علم الأسلوب" ويراها جزء من علم اللغة. وأما مصطلح "الأسلوبية" في العربية، فقد عمل على ترويجه الدارس "عبد السلام المسدي" وهو عنده مقابل لمصطلح (Stylistique) بالفرنسية و (Stylistics) بالإنجليزية وتبعه — في ذلك — محمد عزام، منذر عياشي، عدنان بن ذريل، عزه أغا ملك، فتح الله

أحمد سليمان وغيرهم، وعلى الرغم من الاختلاف، إلى أنها مصطلحات تشير كلها – بالمصطلح – إلى الدرس العلمي للأسلوب الأدبي.

2- تعريفات للأسلوب:

كلمة الأسلوب (style) مأخوذة من الكلمة اللاتينية (stylus)، وتعني قضيباً من الحديد، كان القدماء يكتبون به على ألواح الشمع (4).

وفي العربية " الأسلوب " كلمة مجاز مأخوذ من معنى الطريق الممتد أو السطر من التخيّل، جاء في " لسان العرب " " ويقال للسطر من التخيّل : أسلوب، وكل طريق ممتد فهو الأسلوب والأسلوب الطريق، والوجه والمذهب، ويجمع أساليب والأسلوب (بالضم) الفن، يقال أخذ فلان في أساليب من القول، أي أفانين منه " (5).

فجوزيف مشال شريم يرى " الأسلوب طريقة دمج العطاء الفردي في عملية مجموعة تظهر في كل أشكال الممارسة و يربطه مع عملية الخلق اللغوي يصبح " الأسلوب هو طريقة دمج العطاء الفردي في عمل البناء اللغوي مهما كانت طبيعة الأهداف" (6).

وقد ذهب شارل بالي إلى التمييز بين الأسلوب والأسلوبية، لإحساسه العميق باحتمال الخلط بين المفهومين؛ فحصر مدلول الأسلوب في تفجر الطاقات التعبيرية الكامنة في صميم اللغة بخروجها من عالمها الافتراضي إلى حيز الموجود اللغوي ". فالأسلوب هو " الاستعمال ذاته، فكأن اللغة مجموعة شحنات معزولة والأسلوب هو إدخال بعضها في تفاعل مع البعض الآخر كما في مخبر كيميائي" (7). فتكون الأسلوبية علماً يرمي إلى إقامة ثبت لجملة الطاقات التعبيرية الموجودة في اللغة بالقوة .

ويقول بوفون (1788) : إن المعارف والوقائع والكشوف يسهل نقلها وتعديلها، بل تكتب فريداً من الثراء إذا تناولتها أيد أكثر خبرة، فهذه الأشياء خارجة عن الإنسان، أما الأسلوب فهو الإنسان نفسه، فالأسلوب لا يمكن أخذه ولا نقله ولا تعديله، وهذا التعريف يعني أكثر من أن الأسلوب سمة شخصية في استعمال اللغة لا يمكن تكرارها، ولكن توالى تعريفات أخرى له : أهمها " الأسلوب هو الرجل " (8) لتعني أكثر من هذا ؛ فتعتبر الأسلوب هو "ملمح التفكير"، بل هو مرآة الشخصية، أو أعرق ما في الشخصية وأجدرها

بالاهتمام . وكما يقول جاكوب ماكس (Max jakoub) " إن جوهر الإنسان كامن في لغته حساسيته" (9) .

وعن هذا التضارب والاختلاف في ضبط مفهوم لهذه الكلمة يقول جون مدلتون مري في كتابه "مشكلة الأسلوب": "إن كلمة الأسلوب تعني أشياء كثيرة ولكن كلما كانت هذه الأشياء أكثر تحديد، أي كلما كانت صالحة لأن يشار إليها بالأصبع، كانت أبعد عن المعنى المركزي الكامن في الكلمة، وهو التعبير اللازم والعضوي عن حالة فردية للتجربة، تعبيرا يعلوا ويهبط في سلم الكمال المطلق حتى عندما تتحقق هذه العلاقة المطابقة تبعا لحالة التجربة المعبر عنها، من حيث درجة قيمتها وامتدادها، أي من حيث درجة شمولها ومناسبتها لكل عالما الإنساني وهذا المعنى لكلمة أسلوب تتضاءل بجانبه المعاني الأخرى إلى درجة تقرب من التفاهة (10).

وتجدر الإشارة إلى أن صعوبة تحديد الأسلوب كامنة كذلك في جوهر الأسلوب ومعناه، فهو مما يسهل الشعور بوجوده وبتأثيره في النفس ويصعب رغم ذلك ضبطه والتعريف به، وقد شعر العرب قديما بهذه الصعوبة وعبروا عنها، في إطار حديثهم عن علم الفصاحة وتمييز بعض الكلام عن بعض . يقول الجرجاني: "والبلاء والداء العياء، إن هذا الإحساس قليل في الناس، حتى إنه ليكون أن يقع للرجل الشيء من هذه الفروق والوجوه في الشعر بقوله أو رسالة يكتبها الموقع الحسن، ثم لا يعلم أنه قد أحسن، فأما الجعل بمكان الإساءة فلا تعدمه، فلست تملك إذا من أمرك شيئا حتى تطفر بمن له طبع إذا قدحت وري، وقلب إذا أريته رأي" (11) ؛ فالمتكلم لا يستطيع أن يفهم سامعه بكل أفكاره لمن شاء ومن شاء، فذلك أصعب ما يكون، في نظر الجرجاني؛ لأن الأسلوب ظاهرة لا تتمتع أي أنه لا يخضع لقانون التطور الطبيعي بقدر ما يتوافق وظاهرة الطفرة الغامضة لأسباب والتي تغير من شكل الجغرافيا أكثر مما يغيره قانون التطور الطبيعي لأن صعوبة إدراك الأسلوب تتمثل في البحث عن العراقة الجامعة بين الأشكال اللغوية في النص وبين وظيفتها الشعرية والأدبية الجمالية أي هي إدراك ذلك التحول الكيميائي العجيب الذي يحول الدوال اللغوية المادية في النص إلى دوال جمالية عاطفية في محاولة لتعليل ما نشعر

به من الجمال وغيره من الأحاسيس التي تسربت في أسلوبه في لغته، في تراكيبه وصوره البلاغية ووظيفة الأسلوبية تتمثل في إقامة الدليل عن ذلك الجمال .

ويحاول الدارس "منذر عياشي" وضعه تحت مجهر الملاحظة وخصّصه بتعريف قائلاً : " الأسلوب حدث يمكن ملاحظته : إنه لساني، لأن اللغة أداة بيانه، وهو نفسي لأن الأثر غاية حدوثه، وهو اجتماعي لأن الآخر ضرورة وجوه"⁽¹²⁾.

وعلى هذا الأساس تصبح رؤية الأسلوب عملية معقدة مغلية في التشابك، والجهد فيها مطلوب لما يورثه هذا الأسلوب من متعة، وهذه العملية هي إنتاج مشترك في زمنين متتاليين بتعاقب فيهما مبدع خلاق وقارئ متقف، فكل مبدع يعبر عن ذاته، ولا يكتب لها، وإيداعه هذا نابع من نفسه، وليس موجها لها، ومن هنا كانت حتمية وجود متلق يستقبل النص (الأسلوب، ودوره لا يقل أهمية عن دور مبدعه، وحيث أن لا وجود لنص بدون مبدع، كذلك لا وجود لمقرئيه النص واستمراره - جيلا بعد جيل - دون قارئ؛ فهو الفيصل في الرفض والقبول.

وعن القارئ والأسلوب يقول ريفاتير: "الأسلوب هو إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام، وحمل القارئ على الانتباه إليها، بحيث إذا غفل عنها شوه النص، وإذا حللها وجد لها دلالات متميزة وخاصة"⁽¹³⁾؛ والمحلل الأسلوبي - إزاء هذا القول - لا يجب عليه الانطلاق من النص مباشرة بل من الأحكام التي يبيدها القارئ حوله، لأنه المصدر للاستقرار الأسلوبي، وما يصدر منه من ردود فعل حول أسلوب معين هي بمثابة استجابات لمنبهات نصية.

3-الأسلوب في الموروث العربي:

والملاحظ في مساهمة العرب القدامى في الكلام عن الأسلوب، أن عبد القاهر الجرجاني، أول من استعمل هذه اللفظة استعمالاً دقيقاً دون أن يوليها كبير اهتمام؛ إذ إنه عرف الأسلوب بإيجاز متناهي وبكثافة مقتضبة، يقول: "واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم وتقديره وتمييزه أن يبتدئ الشاعر في معنى له وغرض أسلوباً، والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه، فيعتمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب، فيجيء به في شعره ... " ⁽¹⁴⁾

ويزيد عن ذلك في إطار البرهنة على استحسان أسلوب معين (أي التحليل الموضوعي لأسلوب معين) قائلا: " و جملة ما أردت أن أبينه لك [في الكلام في إعجاز القرآن] أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعله معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادعينا من ذلك دليل، وهو باب من العلم، وإذا أنت فتحتة اطلعت منه على فوائد حليّة، ومعان شريفة، ورأيت له أثرا في الدين عظيما، وفائدة جسمية، ووجدته سببا إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل، وإصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل " 15

أما حازم القرطاجني، فهو أول من خصص للأسلوب فصلا معتبرا إياه فنا مستقلا بذاته - في كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " رابطا إياه بما يسمى النظم؛ فيقول: " لما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحد منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد، وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد ومسائل منها تقتني كجهة وصف المحبوب ... وكانت تحصل للنفس بالاستمرار على تلك الجهات والنقلة من بعضها إلى بعض، وبكيفية الاطراد في المعاني صورة وهيأة تسمى الأسلوب، وجب (جواب لها)، أن تكون نسبة الأسلوب إلى المعاني نسبة النظم إلى الألفاظ لأن الأسلوب يحصل عن كيفية الاستمرار في أوصاف جهة من جهات غرض القول وكيفية الاطراد من أوصاف جهة إلى جهة - فكان بمنزلة النظم في الألفاظ الذي هو صورة كيفية الاستمرار في الألفاظ والعبارات والهيئة الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض، وما يعتمد فيها من ضروب الوضع وأنحاء الترتيب ؛ فالأسلوب هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية، والنظم هيئة تحصل عن التأليفات اللفظية " 16

" إذا أحاط المتكلم بذلك كله - قوي على صوغ الكلام، وأحسن النفوذ إلى مقاصد النظم وأغراضه، والتصرف في مذاهبه وأنحائه - بقوة فكرية هائلة، ومعنى ذلك كله أن القرطاجني يجعل الأسلوب مقالا بلا منظم، والمعاني مقابلة للألفاظ، وهو بذلك يحصر الأسلوب في إطار المعنى؛ باعتبار النظم عنده مصطلحا يشير إلى النظام الألفاظ دون المعاني في هيئة معينة.

وكما سبقت الإشارة، فقد جعل ابن منظور الأسلوب: الضرب من الفن، وهو الطريق من النخيل أو السطر من النخيل، وهو الوجه والمذهب وأفانين القول أساليبه. أما ابن خلدون، كمحاولة لتعريف الأسلوب، فيقول: "ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة - صناعة الشعر- وما يريدون بها في إطلاقهم: فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه، والتي يرجع إلى الكلام بإعجاز إفادته أصل المعنى، الذي هو وظيفة الأعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى، الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه، الذي هو وظيفة العروض؛ فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية، وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية؛ باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها، ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب، باعتبار الإعراب والبيان، فيرصها فيه رصاً، كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال... حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه، فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة" ¹⁷ يضعنا نص ابن خلدون أما قوانين دراسة الأسلوب أهمها:

1 أن هناك farkاً بين الوجهين العلمى والفنى فى تكوين الأسلوب الأدبى ؛ فعلمون البلاغة والنحو والعروض تفيد الدارس فى وضع نظريات تساعد على تقييم الكلام، والوقوف به عند مدى مطابقة قوانين النظم ؛ فى حين أن صناعة الأسلوب الراقى الشاعرى . تعود إلى الطبع والتمرس والكلام الفصيح البليغ .

2 إن الأسلوب فى الأصل، حسب رأي ابن خلدون - عبارة عن صورة ذهنية تتماثل بها النفس، وتطبع وتصل الذوق، وعلى مثال هذه الصورة الذهنية تتألف العبارات (الأسلوب).

3 هذه الصورة الذهنية، التى هى الأصل الأول للأسلوب، ليست معانى جزئية، ولا جملاً مستقلة بل طريقة من طرق التعبير يسلكها المتكلم، بطريقة انتقائية ذهنية، يطوع

فيها الاختيار اللفظي وفق قدرته اللغوية، وتوزيعها وفق القواعد والأسس الغوية المفترضة، ودور هذا يشبه دور البناء صاحب القالب .

4 إن لكل جنس خطابي أسلوبه الخاص، وبيانه الخاص ولغته الخاصة، التي يوجد بها على اختلاف الأنواع.

على هذا الأساس تفرقت الآراء عند العرب، في تحديد تعريف دقيق للأسلوب، من خلال إسهامات معقدة رغم بساطتها، حديثة رغم أصالتها؛ جعلت من الأسلوب جملة متن القوالب الجاهزة الجامدة في آراء توفيقية والأكثر من ذلك جملة من الصور تمثل الإمكانات في التعبير مشتركة لا تختلف باختلاف الأشخاص، بل تختلف الأغراض قام بضبطها القدامى وألزموا بها من جاء بعدهم .

ولعله المنطلق، الذي دفع الأستاذ الطرابلسي، إلى اعتبار أن الأسلوب عند العرب مر بأربع مراحل مرتبة زمنيا كما يلي :

مرحلة المخاض: ويمثلها البيان والتبيين (ت 225 هـ)

مرحلة النشأة: ويمثلها دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ت 377 هـ)
وقد اكتملت التأليف البلاغية في هذه المرحلة)

مرحلة النضج: وتمثلها ثلاث مصنفات:

1 - منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني (ت 684 هـ)

2 - لسان العرب لابن منظور

3 - المقدمة لابن خلدون (ت 808 هـ)

4-مرحلة النهضة المحتشمة: وتمثلها كتب بلاغية مدرسية-متأخرة- (18)

وأما عن زبدة القول من كل ما سبق أن جهود العرب القدامى في تعريف الأسلوب

- على اختلافها - تجسدت في نقطتين هامتين :

الأولى؛النظم: وهنا نقوم بتحديد التعريف اللغوي للأسلوب؛ الرامي بجعله السطر من النخيل أو الطريق الممتد، أو المنهج المتبع، أو المثال أو النموذج، ومن ثم هو طريقة خاصة للمتكلم في استخدام اللغة، وتحدد هوية الممارسة في سياق معين " 19 وعليه تقول أسلوب الجاحظ : أسلوب ابن المقفع، أسلوب طه حسين، ... الخ .

وباعتبار أن اللغة قلق إنساني ونتاج للروح، ونظام (رموز) تحل أفكار الفرد والجماعة، وهذا ما جعل كورزيبسكي (KORZYBOSKY) يقول: طريقة التفكير لدى المجتمعات، هي التي تحدد أسلوب تراكيبهم اللغوية - ففي اللغة الانجليزية نجد تفكيراً استقرائياً (الصفة قبل الموصوف مثلاً)، وفي العربية واللغة الفرنسية تفكير استدلالي (الصفة تتبع الموصوف)²⁰ . والنظم هو التأليف والتنظيم والجودة في الكلام ليصبح حسناً مقبولاً، أو هو معنى لطيف ولفظ شريف "، أو هو خلوص من الكلام من التعقيد وأصله من الفصيح، ويرتبط بالفصاحة في تعليق الألفاظ المفردة التي هي لأوضاع اللغة (المادة الخام) فكل واحد منا يمكن أن يشكل منها الأسلوب الذي ينظم تحته .

وفي قوانين النحو المفردة المعيارية للتراكيب، هناك دائماً هامش من الحرية متاح للمتكلم (مستعمل الأسلوب) إن انتقاء الأساليب المعبرة عن الغرض والأفكار، لأن اللغة مرآة الفكر؛ وذلك بالتدبر في إنشاء العلاقات واختيار الأدوات التي تؤدي إلى التفاعل أحياناً، والخروج عن المألوف أحياناً ثانية، والبراعة في الكفاءة اللغوية أحياناً ثالثة وللجاحظ وللعبد القاهر الجرجاني، وابن خلدون جهود لا يستهان بها في هذا المجال، فتوجب الوقوف عندها لتنشيط هذا المفهوم من خلال حديثهم عن البيان والتعليق ودرجات الاستعارة وتوخي معاني النحو؛ المنوال الشعري ... الخ؛ فكانت إسهامات أضافت إلى منهاج التكامل مع الأسلوب الكثير؛ كون الأسلوب " هو تأويل الشاعر لواقعه في حدود ما توجه به الأساليب بدقة استثماره من لدن الفكر، فالإشارات التي توفرها تسمح للخيال.. [كما] تسمح للوعي الصانع بالعثور على العبارة اللغوية المناسبة " ²¹ .

يقول الجرجاني : "وأما نظم الكلم، فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس؛ فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء وانفق، وكذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك" ²² ؛ أي وضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو .

وزاد عليه القرطاجني: " النظم صناعة آلتها الطبع، والطبع هو استكمال للنفس في فهم أسرار الكلام، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي شأن الكلام الشعري أن ينحى به

نحوها " ²³، من خلال علم التراكيب، وهذا عينه ما ذهب إليه المحدثون في ربط ترتيب الكلمات اختيارا وتوزيعا (أي الخضوع إلى ميكانيزمات القدرة اللغوية)؛ فتفكيرنا وكلامنا يكون وفق كفاءتنا اللغوية والأسلوب ببيان الأفكار وهو ذاته النظم، اصطلاحا ومفهوما، عند العرب القدامى.

ونشير هنا إلى انطباعية سطحية تعبر عن الرضا والاستحسان الذي يمتلكهم إزاء أسلوب أحسن فيه صاحبه، أو رفض واستهجان إزاء نقيضه، فنجد في كتبهم البلاغية نعوتا وصف بها الأسلوب في نص معين، بين الحالتين؛ فكان جميلا رائعا جزلا معبرا، أو قبيحا ضعيفا ركيكا كاذبا. يقول الجرجاني: "أعلم أنك لن ترى عجا أعجب من الذي عليه الناس في أمر النظم، وذلك أنه ما من أحد له أدنى معرفة إلا وهو يعلم أن هاهنا نظما أحسن من نظم، ثم تراه إذا أنت أردت أن تبصرهم ذلك تسدر أعينهم، وتضل عنهم أفهامهم؛ وسبب ذلك أنهم أول شيء عدموا العلم به نفسه، من حيث حسبه شيئا غير توخي معاني النحو، وجعلوه يكون في الألفاظ دون المعاني؛ فأنت تلقى الجهد حتى تملهم عن رأيهم، لأنك تعالج مرضا مزمنًا وداء متمكنا " ⁽²⁴⁾

والثانية؛ عمود الشعر: في حقيقته عبارة عن جملة من الظواهر الأسلوبية تتعلق بشكل الشعر ولغته ومضمونه، وعليه يعني الأسس الجمالية والفنية للشعر - لغة ومضمونا - وفق مبادئ الصياغة والجمال؛ فالواجب في هذه الحال أن نتبين ما هم عمود الشعر العربي عند العرب: يتميز تلديد الصنعة من الطريف، وقديم نظام القريض من الحديث ²⁵.

ويعد الآمدي (370) أول من حام حول ما أسماه "عمود الشعر" في كتابه "الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري" وحدده بالصفات السلبية (الإسراف في البديع، السرقات الشعرية، المغالاة، إعمال الذهن في صفة الشعر، سوء النظم، استكمال حوشي الكلام، تعقيد اللفظ الخ

فقد كان الآمدي يعيب كل هذه الأمور وغيرها، إن وجد لها مكانا في شعر الشاعرين (أبي تمام، البحثري) جاء - بعده - القاضي عبد العزيز الجرجاني (392 هـ) في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه"؛ ليتناول الأمور التي سبق، وأن وضع الآمدي

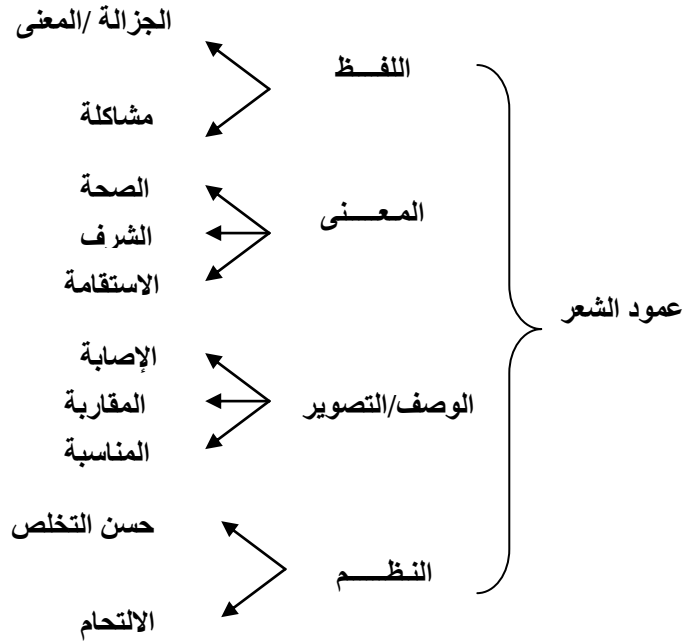
يده عليها بالملاحظة وإبداء الرأي، لكن بصورتها الإيجابية الأولية، وعليه يكون عمودا الشعر، عنده، ذا أركان محددة هي:

- 1 شرف المعنى وصحته .
- 2 جزالة اللفظ واستقامته .
- 3 الإصابة فى الوصف .
- 4 المقاربة فى التشبيه .
- 5 التغرارة فى البديهة

6- كثرة الأمثال السائرة والآليات الشاردة

وقد استفاد المرزوقى (ت 421 هـ) من الجرجاني فى الأركان الأربعة الأولى، واستغنى عن العنصرين الآخرين وأضاف ثلاثة، جاعلا لكل واحدة عبارة، فىكون عمود الشعر على هذه الشاكلة :

- 1 - شرف المعنى وصحته ، عياره : العقل الصحيح والفهم الثاقب
 - 2 - جزالة اللفظ واستقامته . عياره : الطبع والرواية مع الاستعمال
 - 3 - الإصابة فى الوصف. عياره الذكاء وحسن التمييز
 - 4 - المقاربة فى التشبيه . عياره : اللفظة وحسن التقدير .
 - 5 - التحام أجزاء النظم والتأماها على تخيير لذيذ الوزن، وعياره: الطبع
 - 6 - مناسبة المستعار منه للمستعار له، عبارة: الذهن والفطنة .
 - 7 - مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينهما، عياره: طول الدربة ودوام الممارسة، وقد عبر عنه بالنسج عن المنوال والقافية فى كل هذا "الموعود المنتظر" فكانت بذلك صياغة المرزوقى لعمود الشعر خلاصة لأراء نقدية بلاغية سابقة من نحو لم يسبقه إليه أحد، ولا يمكن لأحد تجاوزه بأي حال من الأحوال .
- ويمكن اختصار عناصر " عمود الشعر " أسلوبيا فى أربع كلمات :



وذلك باعتبارها معايير تأسست على عدم مخالفة العرض اللغوي- حقيقة ومجازا- من جهة وعلى تعميق فكرة الوحدة العضوية في القصيدة؛ لتكون متلاحمة منسجمة ومتسقة وقد تنبه لها العديد من البلاغيين والنقاد أمثال ابن طباطبا في عبارة إذ يقول " وأحسن الشعر ما ينتظم فيه القول انتظاما ما يتسق به أو له مع آخره على ما ينسقه قائله ... بل يجب أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة كعان وصواب تأليف ... ويكون خروج الشاعر من كل معنى لطيفا حتى تخرج القصيدة وكأنها مفرغة إفراغا، لا تتناقض في معانيها، ولا وهي في مبانيها. ولا تكلف في نسجها تقتض كل كلمة بعدها، ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها"²⁶، وكذلك نوه إليها القيرواني قائلا " واستحسن أن يكون البيت بأسرة كأنه لفظة واحدة لخصته وسهولته، واللفظة كأنها حرف واحد"²⁷ وغيرها من الآراء التي نجد لها صداها في قول أرسطو: " إن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه لبعض فمتى انفصل واحد عن الآخر، وبيانه في صحة التركيب، غادر بالجسم عاهة

تخون محاسنه، وتعفي عنه معالم الجمال²⁸ وخلاصة القول، أن النقاد العرب قد حاولوا في تذوقهم للشعر، ونقده وضع أصول وقواعد أساسية يعتمدون عليها في تمييزهم بين الجيد والرديء منه، وعليه، يمكن القول أن عمود الشعر . كان له باغ الأثر في الشعراء والنقاد باستعانتهم به لوضع الأصول العامة للنقد، والالتجاء إليه في الحكم والموازنة .

الهوامش:

- 1 - نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب (دراسة في النقد العربي الحديث) - تحليل الخطاب الشعري والسردى- دار هومة، الجزائر، 1998، ج1 ص 16
- 2 - جوزيف مشال شريم، دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1684، ص 37-38.
- 3- ينظر : نور الدين السد، المرجع نفسه ج1 ص 17
- 4 - بيار غيرو : الأسلوب والأسلوبية، ترجمة، منذر عياشي، دار الإنماء القومي، بيروت ص 03
- 5 - ابن منظور لسان العرب، در صادر، بيروت، ط1، 1997، المجلد الثالث، ص 314
- 6 - جوزيف مشال شريم، دليل الدراسات الأسلوبية، ص 39
- 7 المرجع نفسه، ص 85
- 8 شكري محمد عياد، اللغة والإبداع، ص24.
- 9 - بيار غيرو، الأسلوب والأسلوبية ص 22
- 10 - شكري محمد عياد، المرجع نفسه، ص 24-25
- 11 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني ضبط وإخراج : د/ ياسين الأيوبي . المكتبة العصرية، بيروت، 2002، ص 501
- 12 - منذر عياشي، منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري سوريا، ط1، 2002، ص37.
- 13 - منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص 38.
- 14 - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 428
- 15 - الجرجاني، المرجع نفسه : ص 95
- 16 - حازم القرطاجني (أبو الحسن)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ط2، 1981 ط2 ص 363-364.

- 17 - ابن خلدون (عبد الرحمان ابن محمد)، مقدمة ابن خلدون ضبط وشرح: محمد السكندري ، دار الكتاب الغربي، بيروت، لبنان 2005، ص 522
- 18 - ينظر: الهادي البطلاوي، مدخل إلى الأسلوبية، ص 11-12.
- 19 - صالح بالعيد، نظرية النظم، دار هومة، الجزائر، ط1، 2001، ص156.
- 20 - ينظر: نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتبة الجامعية، الإسكندرية، 2001، ص173.
- 21 - المرجع عينه، ص148.
- 22- الجرجاني، الدلائل، ص 102 .
- 23 - القرطاجني، المنهاج، ص 199
- 24 - الجرجاني، المرجع نفسه، ص 498 .
- 25 - مصطفى أبو كريشة، النقد الغربي التطبيقي بين القديم والحديث، لو نجان للنشر مصر، 1998، ص 129. وينظر: محمد عزام، الأسلوبية منهاجاً نقدياً، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 1989 ص151-152.
- 26 - ابن طباطبا العلوي (أبو الحسن محمد بن أحمد ت322هـ) تحقيق : عبد العزيز بن ناصر المانع، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 213 .
- 27 - ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن ت456هـ)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق ،: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط5، 1401هـ/ 1981، ج1، ص 257
- 28 - محمد عزام، الأسلوبية، 153 . وينظر: مصطفى أبو كريشة، المرجع نفسه، ص 145